نوفيلا

عصير الكتب
للنشر الإلكتروني

وتحررت من قيودي

مريم عمرو

Reham

نوفيلا: وتحررتُ مِنْ قيودي

للكاتبة: مريم عمرو

تصميم الغلاف: رِهَام محمد

ما هذه الغرفة؟...لا أرى شيئًا!

هل هي مظلمة؟ أم أنا كفيفة؟

أدركتُ أنني مبصرة حينما رأيتُ خطًا مستقيمًا للضوء يبدد ظلام الغرفة قليلًا.

أخذت أتحسس الأشياء من حولي بحذر، أريد أن أعرف أين أنا..وما الفائدة من وجودي في هذه الغرفة؟

انعقد حاجبايَ الرفيعان باستغراب حينما أدركت أنني لا أستطيع لَمْس أي شيء.. بل لا أستطيع تحريك يديّ أو قدميَّ من الأساس؛ لأنني ببساطة...مقيدة!

سمعتُ صوت سير أقدام في الغرفة تتجه نحوي، فاتسعت حدقتا عيني برعب، ألستُ وحدي في الغرفة؟!

ظللتُ أطلب النجدة علّ هذا الكائن الموجود معي يستجيب لندائي ويحرر قيودي، فلم يكن هناك إجابة سوى الصمت التام.

ألجمت الصدمة لساني حينما صفعني ذلك الكائن على وجهي...أخذت أحاول الصراخ بأعلى صوتي لينجدني أحدهم...ولكن صوتي لم يخرج من بين شفتيّ وكأن لساني مقيدًا هو الآخر!

ظللت أحاول بكل قوتي أن أقطع ذلك الحبل الذي يقيدني، كلما كنت أحاول كنتُ أتألم، وكلما كنت أقترب من التحرر كان الألم يزداد في جسدي كله، لم أعد أستطيع المقاومة، فانهارت قواي.

ظلت الأسئلة تطاردني في مخيلتي...هل سأقوى على التحرر من تلك القيود؟!

أم سأظل أسيرتها إلى الأبد؟!

بدأت الغرفة تختفي من حولي رويدًا رويدًا،والضوء يداعب جفنيّ، وظهر لي وجه (سيد) زوجي الذي أيقظني من أحلامي وهو يصيح بي:

-أين الإفطار يا (نِعمة) لقد تأخرت على موعد العمل في الشركة،

أما زلتِ نائمة إلى الآن؟ ما كل هذا العبث بربك؟!

نهضتُ من فراشي البسيط مسرعة، وأنا أقول:

-أمهلني خمس دقائق وسيكون كل شيء جاهز.

وقفتُ في المطبخ على عجالة من أمري، أحضر له الخبز وما توفر لدينا من أنواع الجُبن، وما إن انتهيت حتى قال (علي) -ابني الأكبر ذو العشر سنوات- وهو يمد ذراعه إليَّ:

-أمي...هلَّا ساعدتيني في إغلاق أزرار القميص من فضلك؟ ولكن بسرعة؛ فأبي غاضب للغاية.

انحنيتُ لمستوى قامته الصغيرة، وقلتُ وأنا أمسد على شعره:

-بالطبع يا قُرَّة عَيْنِي.

أنهيتُ إغلاق أزرار القميص، فأسرع (علي) بمغادرة المطبخ ليكمل ارتداء ملابسه استعدادًا للذهاب إلى المدرسة.

بعد مرور نصف ساعة.....

هدأ البيت تمامًا بعد خروج زوجي لعمله، وأبنائي لمدارسهم.

أكره بشدة الجلوس وحدي في البيت؛ لأنه دائمًا يذكرني بحياتي، وكيف تدمرت بعد زواجي، الشيء الوحيد الذي يجعلني صامدة رغم كل ما يحدث لي؛ أبنائي –(علي) و (عمر) و(أحمد)-، ليس لديهم ذنب في كل هذا، وأبسط حقوقهم أن يعيشوا في بيت هادئ ومع أسرة طبيعية.

إن المرأة حينما تتزوج فإنها تبحث في زوجها عن ذاك الشخص الذي سيشاركها اهتماماتها، ويكون اليد التي تربت على كتفها وقت الشدة، والحُضن الذي تلجأ إليه عندما تكون مُثقلة بهموم الدنيا، ولكن منذ أن تزوجت (سيد) وأنا لا أبحث عن شيء سوى الرحمة!

قطع سيل أفكاري صوت طرقات على باب البيت، فنهضتُ بتكاسل وأنا أسأل بصوتٍ عالٍ بعض الشيء:

-مَنْ الطارق؟!

أتاني صوت الطارق:

-أنا (يُسْرَا) يا (نِعمة).

أسرعتُ أفتح الباب بلهفة، فهذه (يُسْرَا) ابنة خالتي لم ألقاها منذ خمس سنوات مضت، ما إن فتحت الباب حتى ارتمت بين أحضاني وأخذت توزع القبلات على كل إنش في وجهي، حتى أنني انفلتُ بين يديها وأنا أقول بينما ألتقط أنفاسي بصعوبة:

-صحيح أننا لم نلتقِ من فترة ليست بقليلة، ولكن هذا لا يعطيكِ الحق في خنقي.

أخذت تضحك بشدة، ودخلت الشقة، ثم أغلقت الباب خلفها، وقالت وهي تتجول في أرجاءها:

-بيتك لم يتغير كثيرًا يا (نِعمة) ما زال يحتفظ بالدفء في أركانه.

ابتسمتُ بسخرية لقولها، تُرى هل تعرف (يسرا) كم دفعت من عمري لأحافظ على هذا الدفء الذي تتحدث عنه؟

جلستْ على أقرب أريكة قابلتها، وقالت:

-هيَّا قصي عليَّ ما حدث في حياتك في السنوات التي لم نلتقِ فيها.

أسرعتُ أقول:

-بل أنتِ التي يجب أن تحكي لي كل شيء حدث معك، منذ متى وأنتِ هنا؟ وأين زوجك وأبناءك؟ وهل نويتِ الاستقرار بمصر؟ أم ستعودين إلى السعودية مرة أخرى؟

تنهدت بقوة ثم قالت ببساطة:

-لقد طلقني (عاصم) والأبناء سيظلون في حضانتي، وأنا سأستقر في مصر، ولن أعود إلى السعودية ثانيةً.

شهقتُ بفزع لقولها، لدرجة أنني خبطتُ بيدي اليُمنى على صدري وأنا أقول بنبرة متلعثمة:

-م...ماذا؟!! ماذا تقولين بربك؟ لماذا انفصلتما؟ ومن صاحب هذا القرار؟ بالطبع أنتِ يا (يُسرا) فأنا أعرفكِ جيدًا، دائمًا تتذمرين على كل شيء، ولا ترضين بواقعك أبدًا.

صمتُ هنيهة وأكملتُ بسرعة كي لا أترك لها مجالًا للرد:

-ولكن هل سألتِ نفسك ما ذنب أولادك في كل هذا؟ الأطفال حينما ينشئون في بيت مع أم فقط أو أب فقط فإن هذا ينعكس تمامًا على شخصياتهم، ومن المستحيل أن يكونوا أسوياء و....

قاطعتني وهي تقول بحدة:

-(نعمة) اصمتي قليلًا... اتركي لي فرصة لأرد عليك.

صمتت للحظات، ثم أردفت:

-اصغِ إليَّ يا (نعمة)....حياتي أنا و(عاصم) كانت مستحيلة، هو لا يفكر إلا في نفسه، وأنا كنت أتحمل مسئوليات البيت بأكملها لدرجة أنني كنت أضع راتبي الشهري كله في ميزانية البيت، وأين هو؟ الأستاذ يتعرف كل يوم على امرأة جديدة، يبيت خارج بيتنا ليوم واثنين ولا يحق لي الاعتراض طالما يأتِ بالمال في نهاية الشهر!، ما الفائدة من العيش مع رجل لا يقدرك يا (نعمة) ما الفائدة؟ قولي لي.

وليت الأمر توقف على ذلك فحسب؛ لقد تشاجر معي قبل ذلك وضربني، وحينما أصررتُ على الانفصال حينها تعهد إليَّ ألا يفعل ذلك مرة أخرى، وقبل الطلاق بيومان تشاجرنا فأعاد ضربي، فلم أصمت أبدًا..كفى إهانة عند هذا الحد.

دائمًا كنتُ أرى أن (يسرا) أفضل مني بكثير، أفضل مني في كل شيء، على الأقل....استطاعت أن تقول "لا" في الوقت المناسب، في الوقت الذي لو استمرت فيه كانت ستدمر حياتها وحياة أبناءها.

أيقظني من شرودي صوت (يسرا) وهي تكمل:

-وبالنسبة للأولاد فهاذا أفضل لهم صدقيني، لو أكملت حياتي مع (عاصم) كان هذا سيؤثر سلبًا عليهم وهم يرون والديهم كل يومٍ في شجار محتدم، بعد طلاقي من (عاصم) أصبحت أشعر براحة كبيرة يا

(نعمة) أشعر أنني الآن لستُ مقيدة، سأربي أبنائي بطريقة صحيحة وسليمة، بعيدة عن أبوهم ومشاكله التي لا تنتهي.

حركت رأسي علامة النفي، وقلت:

-لا يا (يسرا) مهما كان (عاصم) مليء بالعيوب فهو بالتأكيد له دور كبير في حياة أبناءك، أنتِ لن تقومي بدور الأب والأم في آن واحد وفي وجود أبوهم، هذا مستحيل.

حكَّت (يسرا) رأسها بأصابعها وهي تقول:

-حسنًا...دعكِ مني الآن وقولي لي...ما أخبار حياتك مع (سيد)؟ هل الأمور تسير على ما يرام؟

تنهدتُ بألم وأنا أقول:

-الأمر يطول شرحه، سأحكي لكِ كل شيء ولكن في الوقت المناسب، أنتِ مثقلة بما فيه الكفاية.

أسرعت تقول:

-لا...أنا الآن أفضل بكثير صدقيني.

قاطع حديثنا صوت رنين هاتفي الذي أعلن عن اتصال من أمي، فأسرعتُ أجيب، ليأتيني صوتها المفعم بالحماس:

-بالطبع جاءت لكِ (يُسرا)، أنا سعيدة بشدة أنها عادت لمصر مرة أخرى، وخالتكِ هنا عندي.

لقد هاتفت (يسرا) مراتٍ عديدة، لكن هاتفها مغلق، أخبرها أنها مدعوة لتناول الغداء عندي اليوم، وخالتك جاءت بالأولاد وهم عندي الآن، لولا أنني أعرف حق المعرفة أن (سيد) سيرفض مجيئك لي أنتِ وأبناءك؛ لكنتُ دعوتك أنتِ الأخرى للغداء، أعانكِ الله يا ابنتي، هيا، أخبري (يسرا) ألا تتأخر.

أغلقت الهاتف، وقصصتُ على (يسرا) ما دار بيننا في المحادثة، وأنهيت حديثي بـ:

-أنتِ لم تخبريهما أنكِ انفصلتِ عن (عاصم) أليس كذلك؟ واضح أن أمي لا تدري بشيء.

أسرعتْ تجيب:

-لا، لم أخبرهما، وإياكِ أن تقولي لهما أي شيء يا (نعمة) بالله عليكِ، ستقلبان الدنيا رأسًا على عقب إن علمتا بشيء.

نسج الاستغراب خيوطه على وجهي، فقلتُ:

- وهل مثل هذه الأمور من الممكن مداراتها عن الناس يا (يسرا)؟ بالطبع سيعرفان كل شيء، وسيكون تصرفهما غير مرحب به إطلاقًا.

نهضت من مجلسها، وقالت وهي تودعني:

-إلى الآن...أنا أخبرتهما أنه ما زال في السعودية يقوم بإنجاز أعماله، ليسترها الله من عنده، ليس لديّ أي طاقة للشجار الآن.

صمتت هنيهة، ثم تابعت:

-وداعًا، ولكن يجب أن نلتقي في أقرب وقت ممكن، يجب أن أعرف كل شيء حدث لكِ في الآونة الأخيرة.

اكتفيتُ بإيماءة بسيطة تدل على الموافقة، وأوصلتها إلى باب البيت، ثم توجهت إلى المطبخ لأقوم بتحضير الغداء، بالكاد الوقت يكفيني لأنجز مهامي اليومية .

***

وأخيرًا....انتهى تجهيز الغداء تزامنًا مع صوت رنين جرس البيت الذي أعلن عن وصول زوجي والأولاد.

توجهتُ إلى الباب مسرعة، وفتحته وأنا أقول بابتسامة:

-حمدًا لله على سلامتكم.

احتضنني أبنائي، فقبلتهم، وقلت:

-هيا، قوموا بتبديل ملابسكم فالطعام في انتظاركم.

انصاعوا لي على الفور، بينما اعتدلتُ في وقفتي، وقلت لـ(سيد) الذي لم ينطق بكلمة منذ دخوله للمنزل:

-حمدًا لله على سلامتك، كيف سارت أمورك اليوم؟

أجاب بكلمتين ولم يزد:

-الحمد لله.

تنهدتُ بأسى، فأنا كنت أتوقع ذلك الرد منه، ولكن رويدًا علّ خطب ما حدث له في عمله وتسبب في ضيقه.

***

مرت الأيام يومًا تلوَ الآخر، والأمور بيني وبين (سيد) تزداد تعقيدًا، لا أعرف...هل أنا المقصرة في حقه؟ أم هو المقصر في حقي؟ أم كلانا مقصر في حق الآخر؟!

في صباح يوم الأحد...اتصلت بي (يسرا) واتفقنا أن تأتِ إليّ بعدما يذهب (سيد) إلى عمله والأبناء إلى مدارسهم، وبالفعل في تمام الثامنة والنصف رنّ جرس البيت معلنًا عن وصول (يسرا)، هندمت من مظهري، واتجهت صوب الباب كي أستقبلها، وما إن رأتني حتى أفتر ثغرها عن ابتسامة هادئة تبعتها بدخولها للمنزل وهي تقول:

-اليوم ليس لديّ عزومة عند أمك تمنعنا من استكمال حديثنا، يجب أن تقصي عليَّ كل شيء حدث لكِ يا (نعمة) في الفترة الماضية، لأن حديث أمي وخالتي عنك لم يعجبني أبدًا، هيا، لنحضر كوبين من الشاي، ونجلس النهار بطوله.

ابتسمتُ براحة لحديثها، (يسرا) كانت أختي التي لم تلدها أمي، وأنا أشعر أنني بحاجة لأقص على أحد كل ما يموج بخافقي، فأمي لم تكن أبدًا ذلك الشخص الذي بإمكانك أن تلقي عليه همومك فتشعر بالراحة بعدها...أمي دائمًا تقول لي أنني على خطأ وزوجي محق في كل شيء، ومهما كان فيجب عليَّ إطاعته، أفقت من شرودي عندما تناهى إلى مسامعي صوت غليان الماء، فصببتُ كوبين من الشاي، ثم قلتُ وأنا أعطي لـ(يسرا) كوب الشاي خاصتها:

-قبل أن أقص عليك ما حدث لي...أخبريني هل علمت أمك بشيء بخصوص انفصالك عن (عاصم)؟

تنهدتْ بقوة، ثم قالت:

-نعم...لقد عرفت كل شيء، وتشاجرت معي شجارًا حادًا، ولم أسلم من حديثها كل يوم بيد أنني أصبحت أعيش معها في نفس البيت، هي ترى أنني بذلك فسدت على نفسي حياتي، وتصرفت تصرفًا لا يرقى لفطرة المرأة السليمة، ولم أتصرف طبقًا لقاعدة "ضل راجل ولا ضل حيطة"!

قلتُ باستنكار:

-لا أخفي عنكِ سرًا يا (يسرا) أرى أن خالتي محقة في ما تقوله لك، فأنا مثلًا.... مهما كان زوجي يعاملني بأسلوب فاتر، ومهما كان وقع ذلك عليّ فهو بالطبع أفضل من أكون امرأة بلا مأوى، وأحمل لقب "مطلقة".

تنحنحتُ بحرج بالغ حينما أدركت مدى بشاعة كلماتي الأخيرة ووقعها على (يسرا) التي ظلت مثبتة النظر في عيني ولم تتأثر بما قلت، فأسرعتُ أقول:

-آسفة يا (يسرا) لم أقصد أن أسيء إليك.

-أتظنين أنني ندمت على قراري يا (نعمة)؟ بل بالعكس...أنا أرى أن كرامتي فوق الجميع، (عاصم) كان يصل به الأمر أنه من الممكن أن يضربني! وقد فعلها أكثر من مرة قبل ذلك، وأنا وأنتِ نعلم جيدًا أن ثقافة أمهاتنا ظلت هكذا طبقًا لما نشأتا عليه، وآسفة...أنتِ أيضًا تطبعتِ بطبعهما.

ساد الصمت بيننا للحظات قبل أن تقطعه (يسرا) حينما تابعت:

-الكلام في هذا الأمر لن يجدي نفعًا الآن، هيا...قصي عليَّ كل ما حدث لكِ.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قلت:

-الأمر يطول شرحه بدرجة كبيرة، ولكن....

انظري يا (يسرا) أنا لم أندم قط على أي شيء فعلته من أجل زوجي وأبنائي، فهذا واجبي تجاههم، ولكن دون رغبة مني حينما أرى تعامل (سيد) معي والفتور الشديد الذي ملأ حياتنا وعلاقتنا سويًا، يصعب عليَّ تلك الترهلات التي أصابت جسدي جراء عمليات الولادة، وسنوات الرضاعة...

المرأة منا لا تندم على وفاء منحته لأحدهم، ولا يتعكر صفو مزاجها لو ظلت طيلة اليوم تحضر الغداء لزوجها وأبناءها، فبمجرد أن ترى في أعينهم نظرة رضا عن طعامها، أو تسمع كلمة شكر منهم والله إن كل تعبها يتلاشى وكأن لم يكن.

صمتُ هنيهة لألتقط نفسي، ثم تابعت:

-من فترة كبيرة جدًا وأنا أرى أن (سيد) لا يعجبه أي شيء أفعله، لم أقصر معه في شيء طلبه مني، كنتُ له اليد المعينة على مشقات الدنيا، وهو لا يعبأ بي، كنت أتوق لسماع صوته يطمئن على أحوالي، ولكن لم يفعل ذلك قط!

وحينما أهاتفه أنا يجيب عليّ بكلمات مقتضبة لأقصى درجة تتخيليها.

لم يجلس معي أنا والأبناء في ساعة سهر ونتحدث معًا، لم يشعرني أنني ذات أهمية في حياته، أو أنني أُشَكِّل فارقًا له يُذكر.

أطرقت (يسرا) تفكر للحظات، ثم قالت:

-أرى أن الحل الأمثل هو أن تواجهيه بكل ما قلتيه لي، وانتظري سماع مبرراته، إن لم يقنعك بأسبابه...أرى أن الطلاق هو الحل الأمثل لكما!

-مستحيل يا (يسرا) أجننتِ؟! أنا لستُ مثلك، ولن أكون مثلك أبدًا، أتريدين مني أن أحمل لقب مطلقة؟! حسنًا...وإن تقبلت هذا اللقب...أين سأعيش أنا وأبنائي؟! أمي لو علمت أنني أفكر في هذا الأمر ستتبرأ مني ليوم الدين!

مرة أخرى أجرح (يسرا) بكلماتي، ولكنها فاجأتني حينما قالت:

-وما المشكلة في لقب مطلقة؟ هو لا يشكل أي عار، ولا يشكل أي مشكلة على الإطلاق، بل أنتِ من تتصورين هذا لقلة حيلتك، أنتِ أقوى مما تتصورين يا (نعمة) العيش بمفردك في المجتمع أفضل بكثير مِن العيش مع مَن لا يفقه شيئًا عن الحياة الزوجية ولا عن روابطها، ولا يعي معنى مفهوميّ "المودة" و"الرحمة" يجب أن تقتنعي بذلك.

حدتها في الحديث دفعتني للاحتداد معها فيما تقول، فقلت بنبرة متوترة بعض الشيء:

-لا يا (يسرا) لا، إن المبدأ مرفوض من الأساس، قولي لي أين سأعيش أنا وأبنائي؟ ومن أين سأصرف عليهما؟!

تنهدت (يسرا) بقوة وقالت وهي تستعد للرحيل:

-حسنًا يا (نعمة) أنا سأرحل الآن لأجهز الطعام للأولاد، ولكن اسمحي لي أن أقول لكِ شيئًا أخيرًا:

كل هذه القيود ستتلاشى حينما تريدين أنتِ ذلك.

قالت جملتها الأخيرة، ثم انصرفت...انصرفت وتركتي هائمة هكذا دون وجهة!

***

أسدل الليل ستائره، وجلستُ مع (علي) أذاكر له دروسه، بينما جلس (سيد) ممسكًا بهاتفه، كان موجود معنا بجسده، لكن عقله ليس معنا على الإطلاق!

بعد ساعة أنهيت مذاكرة دروس (علي)، وتأكدت من أنه قد دخل لينام، فذهبت إلى (سيد) في غرفتنا وجلست بجانبه وأنا أقول بنبرة حملت الكثير من العتاب:

-ألا ترى يا (سيد) أن العلاقة بيننا تتدهور يومًا بعد يوم؟ لِمَ؟

أتراني مقصرة معك في شيء؟

أجابني وهو ما زال يتطلع في هاتفه:

-لا يا عزيزتي لستِ مقصرة في شيء، أنا لديّ بعض المشاكل في العمل فقط.

تنهدت بقوة في محاولة لكظم غيظي الذي تسبب فيه ببروده الشديد، وقلت:

-قلتُ لك مائة مرة....حينما أتحدث معك لا تتطلع للهاتف هكذا، وانظر إليَّ وبادلني الحديث.

أغلق الهاتف ونظر إليّ، فتابعت:

-قل لي يا (سيد) متى آخر مرة جلسنا سويًا وتحدثنا في أي شيء؟...أي شيء سواء أكان شيئًا صغيرًا لا يُذكر، أو موضوع للنقاش، أنا أصبحت على هامش حياتك يا (سيد) ألا تلاحظ هذا؟!

تنهد بتأفف ظهر جليًا على وجهه، تقبلت ضيقه من حديثي بسخط كبير، حينما فتحت هذا الموضوع معه الآن ندمت لتسرعي، فربما لديه مشاكل بالفعل في عمله، ولكن...الآن أنا أريد أن أدخل معه في شجار محتدم، ولو تطلب الأمر...سأقتله!!

أيقظني من شرودي نبرته الباردة:

-يبدو أنكِ غير محملة بالأعباء، وتمتلكين وقت متسع لدرجة أنكِ تريدين الشجار معي، في وقت لاحق أعدك أنني سأجلس معك ونتشاجر كما تريدين!

أنهى جملته، وسحب الغطاء على جسده مستعدًا للنوم!

فأسرعت متجهة إليه كالرصاصة وأزحت الغطاء من عليه بغضب، وقلت:

-لن تنام يا (سيد) إلا حينما تسمعني للنهاية!

صمتُ للحظات، وراقبته وهو ينهض من الفراش ويقف أمامي، فتابعت بنبرة عالية لم أعبأ لها، ولم أكلف نفسي عناء الخفض من حدة صوتي:

-كنتُ مترددة في أن أتحدث معك بشأن هذا الأمر، ولكن لا مبالاتك بي تركت في نفسي حزنًا كبيرًا أضيف إلى كم هائل من الأحزان التي سببتها لي يا (سيد)

المشكلة أنني لست في حساباتك من الأساس، أنا آخر شيء تفكر فيه، المهم هو أنني أراعي شئون (علي) و (عمر) و(أحمد) غير ذلك لا يهم، كنت أنتظر منك اهتمام ولو صغير بأي شيء أفعله لأجلك، لم أقصر في حقك ولا في حق الأبناء، ولكنك فعلت و.....

قاطعني بحدة:

-بل قصرتِ في حقي يا (نعمة) كنت أريدك جانبي في أوقات كثيرة، لكني لم أجدكِ.

-هكذا أنت دائمًا...تلقي اللوم عليّ أما أنت...فدائمًا على الصراط المستقيم، لا تُخطئ أبدًا....في كل مرة كنت أحاول أن أتحدث معك، ولكنك لا تدع لي فرصة من الأساس، وتدخل الغرفة وتجلس فيها وحدك.

صمتُ هنيهة لأمسح عبراتي التي بدأت تتسربل على وجهي، ثم تابعت:

-لقد بنيتَ بيني وبينك حاجزًا كبيرًا، كنت السبب الوحيد فيه.

دعك من كل هذا...لِمَ تمنعني من زيارة أمي؟ لِمَ منعتني من ممارسة هوايتي المفضلة –التفصيل- بعد الزواج؟ لِمَ منعتني من التواصل مع أقاربي؟ لِمَ أغلقتَ في وجهي كل باب من الممكن أن يجعلني امرأة ذات شأن في المستقبل، لِمَ لم تكن لي اليد المعينة يا (سيد)؟

-لم أقصد ذلك، كنت أريدك أن تكوني لي فقط، لي وأبنائي.

أسرعتُ أقول:

-حب امتلاك.

-حب امتلاك؟!

-أجل، الذي أنت فيه الآن ما هو إلا حب امتلاك، أنا لست آلة تتملكها يا (سيد).

تعجبتُ كثيرًا من جرأتي، فمنذ متى وأنا أقدر على الوقوف أمام (سيد) بل وأجادله أيضًا!

يبدو أن كلمات (يسرا) تركت بداخلي أثرًا كبيرًا!

مسحتُ عبراتي، ثم قلت:

-أصغ إليّ يا (سيد)...الآن، وفي هذه اللحظة بإمكانك أن تقرر...إما تكسبني للأبد، أو تخسرني للأبد.

لست أمة عندك، ولا أستحق منك كل هذا، إن كنت تريد مني البقاء معك؛ توقف عن تجاهلي، وقدرني، ولا أريد سوى هذا.

تنهد بقوة وهو يقول:

-حسنًا...لن أنكر أنني أخطأتُ في حقك كثيرًا، ولكن أنتِ أيضًا مخطئة...كل ما أريده منكِ الآن؛ أن تتقبلي طبعي، وتتعاملين معه برضا، وأعدك أنني سأحاول أن أغير من نفسي، وأعدل سلوكي معكِ، وعديني أن تكوني لي أمًا قبل أن تكوني زوجة.

صمت هنيهة، ثم قال وهو يقترب مني، ويطبع قبلة حانية على رأسي:

- أرى الآن أن كلانا يحتاج إلى هدنة، وبعدها سأفعل كل ما تريدينه مني.

لسبب أجهله....حينما رأيتُ في عينيه نظرة ندم على ما فعل شعرتُ أن غرور الأنثى بداخلي قد ارتوى.

نحن النساء نشعر بالسعادة حينما نرى أننا نفرق عند أحدهم، خاصة وإن كان هذا الشخص يمثل لنا أهمية كزوج، أو حبيب!

يبدو أن غروري لم يرتوِ بشكل كافٍ؛ إذ منعني من أن أظهر له أي شيء يدل على فرحتي بما فعله، فداريتُ شعوري بالسعادة حينما قلتُ بنبرة جادة:

-حسنًا يا (سيد) لنرى ما ستفعل...في الغد سأذهب لأمي لأجلس معها بضعة أيام، وسأترك الأبناء هنا، ريثما أفكر فيما سأفعله.

ابتسم بهدوء وقال:

-اتفقنا...طابت ليلتك.

***

استيقظتُ مبكرًا جدًا...كنتُ مفعمة بالحماس، قمتُ بتحضير الإفطار سريعًا لهم، ثم جهزتُ حقيبة صغيرة بها ملابسي، وتركت رسالة لـ(سيد) أخبره فيها أنني سأذهب لأمي كما اتفقنا.

***

بالطبع أنت تتخيل كيف ستكون ردة فعل أمي حينما ترى بيدي حقيبة ملابس، استغرق الأمر مني وقتًا طويلًا لأقوم بتهدئة الموقف، وأفهمتها كل شيء، وما كان منها إلا أن قالت:

-أي هدنة التي تتحدثين عنها يا (نعمة)؟ أجننتِ؟ أم أنكِ تعتقدين أنكِ تلعبين معه؟ وماذا عن أبناءك؟ وماذا عنكِ أنتِ؟ كيف تركتيه هكذا؟

اسمعي يا (نعمة)...إن فعلتِ كما فعلت ابنة خالتكِ المعتوهة والله إن ردة فعلي لن تروق لكِ أبدًا، (يسرا) انفصلت عن زوجها لأنه ضربها مرة واثنين، وما المشكلة؟ أهذا هو السبب الذي هدمت من أجله حياتها؟! أنتن الاثنتين لا تدركان شيء على الإطلاق، إن فعلتْ هي ذلك ولم تجد من يمنعها...أنا سأمنعك بكل ما أوتيت بقوة.

سمعتُ كلماتها كلها، وانتظرتُ إلى أن تنهي كل ما بجعبتها، لوهلة...كنتُ أرى أنها على صواب، ولكن جزء من عقلي كان يرفض كل ما تقوله بشدة، كيف من الممكن تقبل المرأة بوضع كهذا..كيف تقبل الإهانة والضرب من زوجها؟

ابتسمتُ بسخرية حينما تذكرتُ أنني أنا المرأة التي قبلت بوضع كهذا، وتقبلتُ تطاول (سيد) عليَّ أكثر من مرة حينما تشاجرنا من قبل فقابل هذا بصفعي ، وتلك المرة التي طلبت منه بعض النقود لآتي بأغراض المنزل فجذبني من خصلات شعري مبررًا فعلته بأنني أحمله ما لا يطيق.

نفضتُ عن رأسي كل تلك الذكريات الأليمة، وتنهدتُ براحة حينما استرجعتُ ما قاله ليلة أمس، وجزء كبير مني سعيد لاعترافه بخطئه، تنهدتُ بقوة وقلتُ لأمي:

-لا تقلقي يا أمي، لن تصل الأمور إلى طلاق إن شاء الله، إذا سمحتِ لي...سأجلس معكِ إلى يوم الخميس، وبعدها سأعود للمنزل.

أسرعتْ تقول:

-ولماذا الخميس بالذات؟

فأجبتُ بنبرة هادئة:

-أعتقد من يوم الأحد إلى الخميس مدة كافية جدًا للتفكير.

ضربتْ كفًا بكف وتركتني، بينما أسرعتُ أهاتف (يسرا) التي كادت تنفجر من فضولها لمعرفة ما حدث، لكني أخبرتها أن تأتِ إلى بيت أمي الليلة، فوعدتني أن تأتي بعد المغرب، أنهيتُ الاتصال، وجلستُ أفكر جيدًا فيما يجب عليّ فعله فيما هو قادم.

***

-شيء غريب!

لم أتوقع أن يرفع (سيد) الراية البيضاء بهذه السرعة.

قالتها (يسرا) ونحن جالستان في صالة البيت، فأسرعتُ أقول:

-ولا أنا، لكني سعيدة أنه اعترف بخطئه.

راقبتُ انقباض حاجبي (يسرا) وهي تقول:

-لا أعرف...ثمة شيء يمنعني من تصديقه، ولكن، لنترك له فرصة أخرى نرى إن كان محقًا فيما يقول أم لا، لكني سعيدة بكِ كثيرًا يا (نعمة) سعيدة لأنك

بدأتِ تدركين قيمة نفسكِ وتقديرها، هذا ما كان عليكِ فعله منذ أن تزوجتِ (سيد).

ابتسمتُ لها، وقلت بنبرة هادئة:

-لم أفعل ذلك إلا لأجل أبنائي يا (يسرا) لن أستطيع أن أعيش مع (سيد) وأنا أدرك جيدًا أنني لا أمثل له أي شيء...فقط آلة تدبر أموره هو وأبناءه.

صمتُ قليلًا، ثم أردفت:

-وأيضًا...سأجعل مساحة لنفسي لأتنفس، حينما أتقابل معه مرة أخرى سأخبره برغبتي الصريحة في العودة للعمل في مشغل الخياطة والتفصيل الخاص بي كما كنتُ قبل الزواج.

-وإن رفض؟

باغتتني (يسرا) بهذا السؤال، فعم الصمت للحظات بيننا قبل أن أقطعه بقولي:

-سأسمع أسباب رفضه، وأعطي لها حلولًا، وإن رفض فسأدرك أنه ما زال كما هو، ولم يتغير قيد أنملة.

***

انقضت المهلة التي حددتها لـ(سيد) سريعًا، وفي صباح يوم الخميس، جهزت حقيبتي الصغيرة التي كنت أحمل فيها أغراضي، وودعتُ أمي التي ما زالت لا تريد محادثتي لاعتقادها أنني أخرب بيتي بيدي.

انعقد حاجباي حينما تذكرت معاملتها لي، وما قالته ليلة أمس حينما كنا على مائدة الغداء:

"عودي لزوجك في أقرب وقت ممكن...أنا لا أقوى على مصاريفك أنتِ الأخرى، الحمد لله أنكِ لم تحضري أبناءك معكِ."

تساءلتُ في نفسي ماذا ستفعل أمي إن تطلقتُ وأردت أن أعيش معها؟

نفضتُ عن رأسي تلك الأفكار التشاؤمية ودعوت ألا تصل الأمور بيني وبين (سيد) للطلاق.

بعد مرور ساعة كنت أقف أمام باب المنزل، وأولج المفتاح فيه، وبدأت الشقة تظهر من خلفه، دخلت وأغلقت الباب، ثم تجولت في أرجاءها قليلًا لأجد أنها في هذه الأيام القليلة قد أصبحت أشبه بالخرابة! أعتقد إن ضاع فيل فيها وبحثت عنه لن أجده!

ابتسمتُ بهدوء، واستغللتُ كوني الآن بمفردي في المنزل، هذا سيتيح لي فرصة ترتيبه، وتحضير الغداء سريعًا قبل عودتهم.

***

وبالفعل، انتهيتُ من إعادة ترتيب المنزل وصنع الغداء، فأخذتُ أهندم من مظهري، فوضعتُ القليل من مساحيق التجميل، وأخذتُ أسرح شعري وأطلقتُ العنان له لينفرد على كتفاي، ثم جلستُ أنتظر عودة زوجي والأبناء.

ابتسمتُ بحب حينما رأيتُ الباب يُفتح ويكشف عن زوجي وهو ممسك بيد الأبناء الثلاثة، واتسعت ابتسامتي حينما رأيتُ ابني الأكبر (علي) يقترب مني ويقبل يدي، ثم يقول:

-اشتقتُ لكِ كثيرًا أمي، أنتِ لا تتصورين كيف كان البيتُ كئيبًا بدونك.

قبلتُ رأسه وشوق، وقلتُ:

-أعتذر منك يا بني، غيابي كان لظرف طارئ، وأنا أيضًا اشتقتُ إليك بحجم السماء.

ذهب (عليّ) وتبعه أخواه لتبديل ثيابهم، فانفردتُ أنا و (سيد) حاولتُ جاهدة على أظهر السعادة على قسمات وجهي، فتصنعتُ بجدية زائفة:

-وها قد أوفيتُ بوعدي، وعدتُ للمنزل بعد انقضاء الأيام الخمس، آمل أن تفي أنت بوعدك أيضًا.

أدركتُ أنني ممثلة ذات موهبة منعدمة حينما انفجر ضاحكًا، ثم عاد لهدوءه وهو يقول:

-أعدك أنني سأفي بوعدي قدر المستطاع، لكن لا تحاولي عبثًا أن تداري سعادتك بعودتك لنا، أو بالعهد الذي اتخذناه معًا، تبدين مضحكة للغاية.

صمت هنيهة، ثم أردف:

-سأبدل ملابسي ريثما تضعين لنا الطعام.

اكتفيتُ بإيماءة بسيطة، واتجهتُ مسرعة نحو المطبخ؛ لألبي مطلبه.

***

حلَّ الليل...وكانت هذه الليلة تحيدًا أسعد ليلة قضيتها في حياتي منذ زواجي بـ(سيد) إذ جلس مع الأبناء، وظللنا نتحدث..كلٌّ يقص ما جد في حياته، ورأيتُ أثر ذلك في عين أبنائي إذ كانوا يتحدثون بحماس كبير، وأعربوا عن سعادتهم بضحكات كانت تصدر من قلوبهم وليس من أفواههم.

انقضت الجلسة سريعًا، ثم تأكدت من نوم الأبناء الثلاثة، فدخلت الغرفة لـ(سيد) وقلتُ بابتسامة نابعة من قلبي:

-كانت هذه أسعد ليلة قضيتها في حياتي.

هزّ رأسه موافقًا، ثم قال:

-وأنا أيضًا شعرتُ أنني تقربتُ كثيرًا من الأبناء..وسعيدٌ بذلك بشدة.

أومأت له مؤيدة، ثم أطرقتُ أفكر...هل أخبره برغبتي في العودة للعمل؟ أم أنتظر..أعتقد أن هذا أنسب وقت، فانتهزتُ الفرصة وقلتُ:

-هل يمكنني الرجوع للعمل كمفصلة ملابس للمحجبات مرة أخرى؟

تطلعتُ إلى ابتسامته التي أخذت تتلاشى رويدًا، ورأيتُ الاعتراض قد بدأ ينسج خيوطه على وجهه، لكنه قال:

-أخشى إن وافقتُ على عودتكِ للعمل أن يؤثر ذلك على الأبناء وعلى مستواهم الدراسي، أنا لن أقبل بذلك يا (نعمة).

أسرعتُ أقول:

-أعدك ألا أقصر معهم أو معك في أي شيء.

فعادت البسمة تشق طريقها إلى ثغره، فقال:

-حسنًا إن كان الأمر كذلك فلا مانع عندي.

ضحكتُ بسعادة كالأطفال، واندفعتُ أقول:

-حسنًا انظر...سأُسَوِّق لنفسي على مواقع التواصل الاجتماعي، وسأفتتح مجموعة خاصة بي وبأعمالي، وخدمة التوصيل ستكون مجانية كعرض مغري في أول شهران من بدء العمل، ما رأيك؟

تقارب حاجباه باستغراب وهو يقول:

-عذرًا يا (نعمة) ولكن...أنتِ لا تفقهين شيئًا في كيفية التعامل مع هذه المواقع، أو كيفية استخدامها.

قلتُ بحماس:

-(يسرا) ستعلمني.

أدركتُ حجم الكارثة التي وضعتُ نفسي فيها منذ أن تفوهت بهذه الجملة، فـ(سيد) لا يتقبل (يسرا) أبدًا منذ زواجي منه، ولا أفهم ما سبب ذلك!

اقترب مني كالرصاصة، وقال بعصبية كنتُ أعرف سببها:

-كيف تواصلتِ معها مجددًا؟ ألم أقل لكِ لا شأن لكِ بتلك المرأة؟

عضتتُ على شفتيّ بتوتر وأنا أقول:

-(يسرا) انفصلت عن (عاصم) وعادت لمصر، وقابلتها حينما كنتُ أجلس في بيت أمي.

اضطررتُ للكذب؛ لأن (سيد) لو علم أنني قابلتها في المنزل مرتين؛ سأخسر التقدم الذي بدأنا نسير إليه.

تنهد بقوة، ثم قال:

-حسنًا يا (نعمة) من فضلك قللي التعامل معها بقدر الإمكان هي خربت بيتها بيدها كما ترين، وأنا لا أريدك أن تكوني مثلها....اتفقنا.

فتر ثغري عن ابتسامة هادئة وأنا أقول:

-اتفقنا.

***

مرّ شهران، قضيتُ فيهما أجمل أيام حياتي، (سيد) تحسن معيَ بشكل ملحوظ، وازدهرت تجارتي بشدة، بدأ اسمي ينير بين السطور في عالم تصميم الأزياء، وأصبحتُ أتردد على بيت أمي دون أي عوائق، لم أفهم ما سبب هذا التغير المفاجئ الذي حدث لـ(سيد)؟!

هل كنتُ السبب فيه؟ أم حبه لأبناءنا هو السبب؟

أم هناك سبب ثالث أجهله؟

ظلتْ الأيام تسير على وتيرة هادئة إلى ذلك اليوم الذي بدأ الشك يسلك طريقه إلى قلبي.

في مساء يوم الخميس كنتُ أجلس وأنهي تفصيل عباءة جديدة لجارتي، وأبنائي من حولي يلعبون.

لاحظتُ غياب (سيد) عنا، فذهبتُ لغرفتنا، وما إن رآني حتى أغلق هاتفه بسرعة، ودسّه في جيبه، نظرتُ إليه باستغراب لا أدري لِمَ فعل هذا؟

لم أستطع منع نفسي من سؤاله...فقلت:

-ماذا تفعل؟ ومع من كنت تتحدث؟!

لم يَخْفَ عليَّ ارتباكه الذي منعه من الرد بشكل مباشر، أخذ يتلعثم كثيرًا قبل أن يقول:

-هذه كانت مكالمة عمل طارئة.

قبل شهرين ظننتُ أنني ممثلة لا تمتلك أي موهبة في التمثيل، لكن اليوم رأيتُ الأقل مني موهبة...بل موهبته تكاد تكون منعدمة، كذبه كان واضحًا لدرجة جعلتني لا أستطيع التغافل عنها، فقلتُ وقد بدأ الشك يتزايد داخل قلبي:

-وهل مكالمة العمل ستجعلك متوترًا هكذا؟

صحيح أنني تغيرتُ بعض الشيء، ولم أعد (نعمة) المرأة التي تهاب زوجها أكثر من أي شيء آخر، ولكن...حينما رأيتُ ملامح (سيد) تتحول إلى الغضب، برغم أنني متأكدة أنه كاذب، تراجعتُ بخوف، ونويتُ السكوت، لكنه قال بنبرة حادة:

-(نعمة)، أنا لا أكذب، وكفي عن هذا العبث.

داريتُ خوفي من حدته حينما ابتسمتُ بسخرية وقلت:

-وأنا لم أقل أنك كاذب بالمناسبة.

تركني وخرج من الغرفة بأكملها، بينما ظللتُ أضرب أخماس لأسداس وأفكر...هل (سيد) خائن؟!

***

ومر أسبوع آخر...تحولت فيه حياتي من حياة مستقرة إلى حياة معقدة كثيرًا يملؤها الشك.

كانت داخلي رغبة جامحة في تفتيش هاتف (سيد) وأعرف كل ما يخفيه عني، لكني لم أكن أبدًا مثل أولئك النسوة الاتي يحللن التجسس على هواتف أزواجهن بحجة الاطمئنان!

حزنتُ كثيرًا....لقد شعرتُ بالاكتفاء طوال الفترة الماضية، كنتُ سعيدة جدًا...كنتُ أرى أن زوجي هو الزوج المثالي رغم ما فيه من العيوب، وفجأة...بدأ كل ذلك يتلاشى وكأنه لم يكن، بل كان دروب من خيال!

أتساءل...لماذا لا يخلص أحباؤنا لنا كما نخلص لهم؟ لماذا دائمًا هناك حاجز كبير بين أي متحابين؟!

حياتي أصبحت مملة كثيرًا... أفتقد دفئ العائلة من حولي، أهاتف أمي يوميًا علّي أجد في صوتها ذلك الدفئ الذي أرجوه، لكنها كما هي...لم تتغير أبدًا، وكل مكالمة تؤكد لي أنني حِمل كبير عليها ولا تريد أن آتي إليها مرة أخرى!

حتى حياتي أنا و (سيد) لا أعرف ما الذي سيحدث في حياتنا.

ترى إن كان أبي ما زال على قيد الحياة..هل كان سيسمح بما سيحدث الآن؟

أظن نعم، فهو كان مثل (سيد) في الأساس، لكم رأيته يضرب أمي وأنا صغيرة، وبعدها أمي تعود كسابق عهدها ولا تتخذ أي موقف تجاهه، لذا كان طبيعي جدًا أن تراني أنا و(يسرا) معتوهتان ليس إلا!

المشكلة أن (سيد) أصبح غريبًا لأقصى درجة، وشكي فيه بدأ يتفاقم كثيرًا، خاصة بعدما رأيته وقد وضع رمزًا سريًا لهاتفه، رغم أنني لم أشرع أبدًا في مس الهاتف أو تفتيشه!

أكاد أفقد صوابي من فرط الشك.

وكعادة كل يوم من أيام الدراسة....كنتُ أجلس وسط الأبناء وأشاركهم مذاكرة دروسهم، وبين الحين والآخر كنتُ أرد على رسائل الاستفسار عن أسعار تفصيل الملابس ولا أستطع إنهاء تفصيل آخر الطلبات؛ لأن ماكينة الخياطة حدث فيها عطل كبير أثر على آداءها بشكل ملحوظ، و(سيد) تأخر كثيرًا اليوم، ولا أدري ما السبب، فعليًا قد نويتُ مواجهته بكل شيء، وإن لم أجد مبررًا مناسب؛ سأقلب الدنيا رأسًا على عقب!

لم تمر ساعة إلا وقد رأيته يدخل البيت وهو يمسك بصندوق هدايا، كان كبير الحجم جدًا، لم أستطع تخمين ما الذي من الممكن أن يكون داخل هذا الصندوق.

اقترب مني وابتسامة صافية تزين ثغره، وقال:

-افتحي هذا الصندوق فضلًا.

نظرتُ إليه ببلاهة وأنا أأخذ منه الصندوق، كان ثقيلًا بدرجة كبيرة، فوضعته على الأرض برفق، ثم انحنيتُ أفتحه وأحل الرباط الذي كان يتوسطه، فظهرت لي ماكينة خياطة حديثة جدًا...شهقتُ من أثر المفاجأة، بينما ترك أبنائي مذاكرتهم وأخذوا يصفقون بفرح.

أخذت ابتسامته تتسع وهو يقول:

-نظرًا لتعطل ماكينتك، هذه واحدة أخرى أحدث كثيرًا من السابقة.

صمت هنيهة، ثم أردف:

-منذ أسبوع...وحينما رأيتيني أتحدث في الهاتف كنتُ أوصي عليها، لم أكن أخونك كما ظننتِ يا (نعمة).

ضربتُ بأفكاري السيئة كلها عرض الحائط، وارتميتُ داخل أحضانه وأخذت أشكره بامتنان حقيقيّ.

برغم عيوب (سيد) التي لا حصر لها...إلا أنني لا أستطيع أبدأ أن أنكر أنني سعيدة جدًا لاهتمامه بي، قد شكوْتُ إليه سابقًا من تعطل الماكينة، لكنه لم يظهر أي اهتمام حينها، وظننتُ أنه قد نسيَ الأمر بالفعل.

هذه الليلة...نمتُ نومًا هادئًا لم أنعم بمثله لمدة أسبوع.

***

-"انظري يا (نعمة) ما فعله (سيد) شيئ جميل للغاية، لكن برأيي ليس بإمكانك الوثوق به بسرعة، لا تعلمين ربما يخفي عليكِ شيئًا كبيرًا يداريه بتصرفاته تلك."

هذه كانت رسالة (يسرا) لي التي أرسلتها عبر تطبيق "الواتس آب" فقرأتها وأنا مشتتة التفكير...أيعقل؟

هل من الممكن أن يكون كلام (يسرا) صائبًا؟! مستحيل...

لقد بدأتُ أشعر بتحسن معاملته بالفعل، لن أضع كلمات (يسرا) بعين الاعتبار، فلربما تقيس على تجربتها السابقة.

ولكن..رغمًا عني كلماتها تركت داخلي أثرًا كبيرًا، هل أسأل (سيد)؟!

ما هذا الغباء!؟ تفكير ساذج للغاية، الحل الأمثل هو أن أنسى الأمر برمته، لم أرَ شيئًا سيئًا من (سيد) إلى الآن.

تركتُ الهاتف من يدي، ودلفتُ إلى الغرفة، ثم صببتُ أربع أكواب من عصير البرتقال لزوجي والأبناء، وحينما عدتُ من المطبخ رأيتُ (سيد) يمسك هاتفي ويصيح في وجهي بغضب:

-ألم أقل لكِ كفي عن محادثة تلك المعتوهة؟!!

توترتُ حتى كدتُ ألقي أكواب العصير على الأرض، ولكن تحاملتُ إلى أن وضعتها على أقرب طاولة، ثم رحتُ أفرك أصابعي بتوتر وخوف بالغين، و(سيد) يقف أمامي ينتظر تفسيرًا لما يراه في هاتفي، حاولتُ تجميع الكلمات، ولكنها خرجت من بين شفتيّ متلعثمة وخافتة للغاية:

-س...سيد من فضلك، سأخبرك بكل شيء بعد قليل، لكن أرجوك لا أريد أن نتشاجر أمام الأبناء...من فضلك.

انطلق كالرصاصة إلى غرفتنا، بينما ظللتُ مكاني أحاول تنظيم أنفاسي التي تسارعت من فرط ما لقيته من توتر واضطراب.

(سيد) لن يمر ما حدث الآن مرور الكرام أبدًا وأنا وأنت نعرف هذا جيدًا، تُرى ماذا سأفعل إن سحب مني الهاتف ومنعني من استكمال عملي؟

هذا عقاب لن أتحلمه، الغباء هنا يكمُن في أنني المخطئة ليس هو...أنا من خالفتُ ما طلبه مني وأنا أعي جيدًا مدى كرهه لـ(يسرا) وصدقًا لا أجد تفسيرًا لهذا.

***

تنفستُ الصعداء حينما تدثر أبنائي كلٌ في سريره، وحاولتُ جاهدة أن أبدو طبيعية وأنا أدلف لغرفتنا، فوجدته ما زال مستيقظًا في الفراش، يجلس كالضابط الذي ينتظر اعتراف المتهم وإقراره بجريمته التي ارتكبها!

حسنًا يا (نعمة)...لا توتر...لا خوف..فقط حديث بالعقل والمنطق.

-(سيد)...أعرف جيدًا أنني أخطأتُ فيما فعلت، ولكن دعني أخبرك عن أسبابي أولًا.

صمتُ هنيهة، ثم تابعت:

-يا (سيد)، (يسرا) لم تكن ابنة خالتي فحسب، هي أختي التي لم تلدها أمي، ومنذ أن وعيتُ على هذه الدنيا كانت لي الأخت، والرفيقة، والأم، والملجأ الوحيد لي للتنفيس عما يجول بخاطري.

أنت تعرف جيدًا أنني لا أتحدث مع أحد، وكنتُ أنتظر عودتها بفارغ الصبر، وحينما طلبت مني أن أكف عن التحدث معها أو مقابلتها كان هذا شيء شاق عليّ بشدة...ولم أستطع تنفيذه، أعتذر يا (سيد) لكن أرجوك ضع نفسك مكاني أولًا.

راقبتُ ملامحه وهو يتنهد بقوة، ثم يقول:

-الأمر لا يتعلق باعتذار منكِ، أو بمسامحتك، أقدر ما تقولينه ولكن....حينما تريدين الحديث مع شخص وتبوحين له بكل ما يحزنك...اذهبي للشخص الذي يحبك، ليس الذي تحبيه أنتي، وفرقي بين شخص ينصحك لأنه يريد لكِ الخير، وشخصٌ يريد أن يصنع منكِ نسخة طِبْق الأصل منه.

(يسرا) لم تتصرف بعقلانية، ولا أريد منكِ أن تكوني مثلها....هذا كل ما أريد قوله لكِ...لأنني أراكِ تتبعين سبيلها بطريقة ما، ولا تنصتين لكلماتي أبدًا.

رغم اعتراضي على جزء ما في كلام (سيد) لكني لم أريد أن أدخل معه في شجار آخر، فقلتُ وأنا أجلس جانبه على الفراش:

-حسنًا...سأفعل ما تقوله بالحرف الواحد، ولكن أرجوك اعطني الهاتف...عندي رسائل كثيرة أريد الرد عليها.

-لا يا (نعمة)، الهاتف سيبقى معي إلى أن تعودي لصوابك، ولا تطيعي تلك المعتوهة.

منعتُ نفسي بأعجوبة من الانفجار في وجهه، وبحسرة وحزن شديدين تدثرت في الفراش، وتمردت دمعة فخرجتْ من مقلتيّ سالكة طريقها نحو وجنتي.

***

صباح جديد بلا هاتف...بلا عمل، فقط ممارسة أعمال المنزل وتحضير الغداء لـ(سيد) والأبناء.

تأففتُ بضيق حينما وجدتُ أنني بحاجة قصوى للتسوق وشراء بعض الخضراوات واللحوم اللازمة لتحضير الغداء.

ارتديتُ عباءة سوداء، وأحكمتُ ربط الحجاب فوق رأسي، لأتأكد أنه يغطي صدري ومنتصف ظهري، ثم هبطتُ من البناية وأنا أرتب أولوياتي في المشتريات.

***

أتؤمن أن الله يرسل إليك رسائل عديدة تكون كوميض الأمل الذي يشع وينير داخل عقلك؟! سأريك برهانًا على ذلك حالًا.

دكتور (خديجة) مستشارة في الحياة الزوجية، والاجتماعية، والأسرية، للتواصل معها هاتفنا على هذا الرقم....

هكذا قرأتُ الكلمات المدونة على لافتة بجانب عمارتي، عيادتها الخاصة في الطابق الرابع وأنا أقنط في الطابق الثالث! لا يفصل بيني وبينها سوى عدة درجات من السلالم، والرائع في الأمر أنها خصصت حجرة من حجرات الشقة وجعلتها خاصة بها، فأصبحت تملك عيادة ومنزل في الوقت ذاته!

فضلًا عن شقتها الخاصة بها وزوجها في الطابق الخامس، لكني أعرف أنها تفضل الجلوس في العيادة، لأنها أصبحت وحيدة بعدما تزوجت ابنتها، وتوفى زوجها منذ عامين.

لم أتذكرها أبدًا إلا حينما رأيتُ تلك اللافتة الإعلانية عنها!

الشَّيْبُ استطاع أن يلحق ببعض من خصلات شعرها السوداء، وينسج خيوطه على بشرتها النقية، لكنه أبدًا لم يستطع المساس بنقاء روحها وشبابها.

كنتُ أعتبرها سيدة فاضلة مقربة لي، لكني لم أستطع أن أقص عليها أي شيء يخص حياتي...كنتُ خائفة صراحةً..إن علم (سيد) بذلك سيقتلني!

ولكن، الآن أنا بمفردي في المنزل، وما زال الوقت مبكرًا جدًا، وصدقًا أنا أريد التحدث مع أحد، وأستشير أهل العلم، علي أجد ما يرشدني إلى الطريق الصواب.

أسرعتُ أضع مشترياتي داخل المنزل، ثم صعدتُ درجات السلم بسرعة، وطرقتُ بابها على استحياء، ولكن سرعان ما أفتر ثغري عن ابتسامة شوق حينما فتحت الباب وهي تقول بنبرة دافئة لم أجدها قط في أمي:

-(نعمة)...حبيبتي، أهلًا بكِ...تفضلي...تفضلي يا ابنتي.

دلفتُ للمنزل وأنا أعرفه جيدًا، فقد قمتُ بزيارتها مرة حينما عرفتُ أن ابنتها قد وضعت مولودها الأول، فجئتُ أهنئها.

ما زلتُ أتذكر تلك اللوحات المريحة للعينين، وتلك الورود الطبيعية التي زينت الطاولات الصغيرة الموجودة في صالة الاستقبال.

سحبتني إلى إحدى المقاعد، وقالت بابتسامة حنون:

-ما أخبارك يا ابنتي؟

أسرعتُ أجيب:

-في البداية أعتذر لكِ كثيرًا عن مجيئي في هذا الوقت المبكر ولكن...

قاطعتني بقولها:

-لا لا...ومن قال ذلك؟ أنا أنام في العاشرة مساءً، وأستيقظ مع أذان الفجر لأصلي وأقرأ وردي اليومي من القرآن، لقد جئتِ في وقتٍ مناسب تمامًا لا تقلقي...ثمة شيء تريدين البوح به، أليس كذلك؟

أومأت برأسي أي نعم، وقلتُ:

-أريد أن أستفيد من خبرتك في مشكلة ما...تخصني.

قالت بابتسامة حنون:

-تفضلي يا حبيبتي.

سحبتُ نفسًا عميقًا، ثم رحتُ أقص لها كل شيء يخصني...شرحتُ لها طبيعة العلاقة بيني وبين أمي ومدى فتورها، شرحتُ لها كلشيء يخص علاقتي بـ(سيد)...وقصصتُ لها كل شيء عن (يسرا) وأشرتُ إلى أنها كانت سببًا قويًا في تمردي وإن كان بالجزء الصغير.

لم أترك شيئًا إلا وقصصته لها، وهي لم تتذمر قط، بل كانت تتفاعل معي بتعابير وجهها، إلى أن ختمت حديثي بـ:

-الآن أنا مشتتة لأقصى درجة بإمكانكِ تخيلها، أشعر أنني مخطئة، وفي الوقت ذاته أشعر أنني على صواب...أشعر بغرابة تصرفات (سيد) ولكني لا أفهم ما السبب؟!

ابتسمت بوقار، ثم أجابت:

-مشكلتك الحقيقية يا (نعمة) تكمُن في انعدام ثقتكِ بنفسك، أنتِ لا تمتلكين حرية القرار، لا تنصتين لصوت عقلك؛ لأنكِ لم تتربيّ على ذلك سلفًا، تعودتِ دائمًا أن تكوني الإنسان الآلي الذي يطيع الأوامر دون اعتراض...دون أن يستمع لعقله، أو يترك لنفسه لحظات يفكر فيها أكان صائبًا ما سيفعله أم لا؟

أمكِ وأبيكِ، ثم زوجك...ثم المجتمع من حولك ألغواْ شخيصتك تمامًا، وأخذوا يشكلون شخصية جديدة تتوافق مع اعتقاداتهم وأفكارهم.

ولكن..بإمكاننا إصلاح كل هذا.

صمتت هنيهة، ثم تابعت:

-آسفة لقول ذلك، ولكن...(سيد) لم يتيغر قيد أنملة ولن يتغير أبدًا كل ما يفعله الآن هو طبع مؤقت، وسيعود كسابق عهده قريبًا، انظري...

لقد منعكِ من عملك مع أول شجار بينكما منذ أن قرر تعديل سلوكه، وبالمناسبة...ليس بالضرورة أن تكون (يسرا) مخلصة لكِ أو أنها تعاملكِ

كشقيقتها، من الممكن أنها أرادت أن ترى فيكِ انعكاسًا لشخصيتها، فأخذت تملي الأوامر وأنتِ تقومين بتنفيذها، أتفهم أن في كلماتها الصلاح لكِ ولكن حينما تتعارض أفكاركم ووجهات نظركم ستفهمين ما أريد قوله جيدًا.

مَن زعم أن الحب في الزواج شرطًا لنجاحه فهذا شخص قاصر التفكير جدًا، وينظر للحياة من زاوية واحدة.

أتفهم حاجتكِ في أن تريْ الحب، والعاطفة في عين زوجك، ولكن ليس هذا هو الأساس، طالما يتعامل معكِ برفك، ويعامل أبناءكِ بلين، ولا يحجر عليكِ بفكره، ويعطيكِ مساحتك، ويعطيك كامل حقوقك الشرعية، والمودة والرحمة حاضرتان دائمًا في تصرفاته؛ فماذا تريدين منه بعد ذلك؟!

أخذتُ أحرك يدي بعشوائية وأنا أقول:

-المشكلة أنني لا أعرف إن كان يطبق ما تقوليه أم لا! أخاف أن يكون كل ما هو عليه الآن هو قناع مزيف سيسقط في يومٍ ما وأعاود معاناتي مرة أخرى، لا أريد أن أخسر بيتي وأبنائي...لكني أريد أن أتحرر من تلك القيود والأصفاد التي تكاد تخنقني.

أريد أن أحيا حياة طبيعية بعيدة عن الشك والخوف الدائمين هذا قيد.

أريد من أمي ألا تراني عبءٌ عليها تتمنى أن يختفي من حياتها...هذا قيد.

أريد ألا أخاف من المستقبل...أريد ألا أكون مترددة في كل خطوة أخطوها وفي كل قرار أتخذه...هذا قيد.

أريد ألا أكون هذه الـ(نعمة) الساذجة التي يحركها العامة كيفما يريدون...هذا قيد.

أريد أن....

صمتُ حينما بدأت العبرات تتساقط على وجنتي بغزارة فأصبحت كالسربال، اقتربت مني دكتور (خديجة) وربتت على كتفي بيد، وباليد الأخرى أخذت تمسح بها دموعي، فقلتُ بنبرة منتحبة:

-أريد أن أكون إنسانة طبيعية لها حق التصرف في حياتها.

-ستفعلين كل ما تريدين أعدك بهذا، هيا...قومي بغسل وجهك، وتعالي لنكمل حديثنا.

فعلتُ ما قالته، ثم جلستُ مكاني، فقالتْ:

-أنتِ أقوى مما تتصورين...أفضل نساء العالم، وتمتلكين قلبًا نقيًا لا يحمل البيغضة والكره لأحد، سأسألك سؤالًا واحدًا وأريد منكِ إجابة واضحة:

-هل أنتِ واثقة من أن (سيد) لا يعرف امرأة أخرى غيرك؟!

أسرعتُ أقول:

-نعم.

ثم ترددتُ مرة أخرى وقلتُ:

لا!...لا أعرف، ولكن ما علاقة هذا بحديثنا الآن؟

أطرقت تفكر قليلًا، ثم قالت:

-تصرفاته غريبة، مع أول مواجهة بينكما وافق على طلباتك، وتغير في ليلة وضحاها، لم يتصرف بعدوانية أبدًا، وهذا مخالف تمامًا لشخصية، ألم تلاحظي ذلك؟!

تنهدتُ بحيرة وأنا أقول:

-كيف أقطع الشك باليقين إذًا؟

قالت ببساطة:

-واجهيه.

-أواجهه؟!! وإن أنكر؟

ابتسمتْ بمكر وهي تقول:

-سنلجأ للخطة البديلة.

***

حينما اقترحت عليّ دكتور (خديجة) فكرة المواجهة لم تكن تدري ولا أنا كنتُ أدري أن القدر كان يرتب لشيء آخر تمامًا..شيء لم يخطر ببالي ولا ببالها ولو لثانية واحدة!

عمّ المساء، وذهب (سيد) لدورة المياه بينما كنتُ أجلس مع (عليّ) ونذاكر معًا.

أعلن هاتف (سيد) عن رسالة، فأنارت شاشته، فاستطعتُ بسهولة قراءة الرسالة التي جاءت من رقم مجهول غير مُسجل:

-وهل عَلِمَت (نعمة) بأمر زواجنا؟!

أخذت أنفاسي تتسراع مرة واحدة...دقات قلبي تتزايد...بدأ جسدي يتصبب عرقًا رغم برودة الجو!

أعيد قراءة الرسالة مرارًا وتكرارًا أحاول تكذيب عيني، بالطبع ما يوجد أمامي الآن ليس صحيحًا، أليس كذلك؟

عينايَ بدأتا تذرفان الدمع، وبدأتُ أشعر أن الزمن توقف من حولي، وشُلّ عقلي عن التفكير.

ما هذا؟ أنا في كابوس بالطبع (سيد) لم يتزوج عليّ بعد كل ما فعلته من أجله بالتأكيد.

حينما سمعتُ صوت باب الحمام يُفتح معلنًا عن خروج (سيد) تركتُ الهاتف من يدي فورًا، ونهضتُ بسرعة من جانب (عليّ) ودثرتُ في فراشي أبكي بوهن...أبكي حتى كاد نفسي ينقطع من كثرة شهقاتي المتتالية.

هل جربتَ من قبل أن تظل طيلة حياتك ترسم لنفسك هدفًا...تسير عليه...لا ترضى بأي أخطاء، تريد أن تحقق المعادلة وتحيا سعيدًا، تريد أن تكون إنسانًا يعيش حياة طبيعية، تسير على الصراط المستقيم، وفجأة...يأتي أحدهم ويحطم لك كل ما بنيته في لمح البصر، أو ترى فعلًا يهدم لك كيانك الذي تحملت وذقت الوَيْل لتحافظ عليه.

هذا كان شعوري بالضبط.

ظللتُ أشهق كالأطفال، والدموع تنهمر من مقلتيّ بلا توقف حتى شعرتُ أنها قاربت على النفاد، شعرتُ أنني بحاجة للتنفس فأزحتُ الغطاء عن رأسي وأخذت أملأ رئتيّ بالهواء فتمنحني أكسجينًا نقيًا أتنفسه وكأنها تواسيني.

أشعر أنني وحيدة، أريد أن أصرخ عاليًا...أريد أن ألقي على أحد كل تلك الأعباء التي تكاد تقضي عليّ.

وأين هو؟ هو يجلس أمام التلفاز بالخارج كالصنم!

صِدْقًا...في هذه اللحظة تحديدًا كنتُ أحتاج لحضن أمي...حضن أمي الذي لم أذق دفئه منذ أن وطأت قدمي هذه الدنيا!

***

كانت ليلة طويلة بائسة لم أذق فيها ولو دقيقة نوم، عقلي لم يكف عن التفكير، أمسكتُ هاتف (سيد) ورحتُ أحاول فتحه...كنت أريد معرفة اسمها...سنها...دافعها الذي جعلها توافق على الزواج من رجل متزوج ولديه أبناء، وأخيرًا...أريد أن أعرف متى تزوجها، وما هي دوافعه العظيمة لفعل ذلك. لكني لم أنجح قط في فتح الهاتف، فخرجتُ من الغرفة ودموعي ما زالت على وجنتيّ لم تتوقف طيلة السويعات الماضية، قد قَرُب أذان الفجر!

حتى قدمايَ خذلتاني ولم تعاوناني على السير حتى أستطيع الوصول للشرفة، كنتُ بحاجة للتنفس أكثر.

تلك اللحظات التي تشعر أن الكلمات ستخنقك إن لم تخرجها لأي شخص في الحال، تشعر أنك ستموت قهرًا إن لم تشكو لأحدهم قلة حيلتك...هي أصعب لحظات ستعيشها في حياتك على الإطلاق!

أقنعتُ نفسي أنه حتمًا سأصل لنتيجة مرضية، وسأفهم كل شيء قريبًا، فلا داعي للقلق.

لم يمر خمس دقائق إلا وعاودتُ البكاء مجددًا ضاربة بكل ما أقنعتُ نفسي به عرض الحائط!

بدأت خيوط الشمس تظهر بعدما كنتُ يئستُ أن تنقضي هذه الساعات الكئيبة المميتة.

بالطبع لم يخفَ على (سيد) آثار بكائي، جفنيّ اللذان قد انتفخا حتى كادت مقلتيّ تختفي من بينهما، وتلك الهالات السوداء التي شكلت نصف دائرة عميقة تحت عيني، لكني كالعادة لم أستطع البوح بشيء، لكن في هذه المرة كان الاكتفاء بالصمت لِعِلَّة في نفسي...لا أريد أن يعرف أنني قد كشفتُ أمره حتى أقرر ما الذي يتحتم عليّ فعله حتى أخرج من هذا المأزق بأقل الخسائر.

انتظرتُ بفارغ الصبر خروج (سيد) والأبناء، وهرولتُ تجاه طابق دكتور (خديجة) وما إن تجلى وجهها من خلف الباب حتى ارتميتُ في أحضانها وبدأتُ أبكي مجددًا وكأني لم أكتفِ بالساعات الطويلة التي استغرقتها كلها في البكاء!

***

-إن كنتِ تعتقدين أن حزني الآن يتمثل في زواج (سيد) عليّ وأنني حزينة لخيانته، فحتمًا لديكِ لَبْس في فهم الأمر.

قُلتها لدكتور (خديجة) قبل أن أستكمل حديثي:

-المحزن أنني أفنيتُ من عمري خمسة عشر سنة قضيتهم في خدمة (سيد) دون تذمر أو اعتراض، كنتُ أقابل إساءته بإحسان، كنتُ أحاول بكل جهدي توفير المال، ولا أبتاع إلا المستلزمات الضرورية، أفنيتُ شبابي وصحتي في خدمته هو والأبناء، وقابل هو كل ذلك بالخيانة...طالما تزوج عليّ دون وجه حق ودون أن يعطيني حقوقي كاملة، ودون إخباري فأنا أعتبرها خيانة كبرى.

يَصْعُب عليّ بعد كل ذلك ما فعله يا دكتور، ذلك القابع بين صدري قد تأذى كثيرًا دون أن يرى جبرًا يداوي كسوره وخيباته.

تطلعتُ إلى وجه دكتور (خديجة) الذي عَبَس منذ أن عرفت بكل شيء، فأضفتُ:

-لا أريد منه سوى أن يطلقني...أريد إنهاء كل هذا العبث.

أسرعتْ تقول:

-غبية!

إن فعلتِ ذلك؛ حتمًا ستخسرين الكثير، اصغِ إليّ جيدًا يا (نعمة)....كل التضحيات هذه لم تكن من أجل (سيد) وأنتِ تعرفين ذلك جيدًا، كل هذا كان من أجل أبنائك الذين هم قرة عينك، أنتِ أمامك فرصة ذهبية من

الممكن أن تحقق لك هذه الحياة المستلقة التي طالما حلمتِ بيها وتمنيتِ تحقيقها...لا تنظري للأمور من زاوية واحدة فضلًا.

بدا كلامها كله غير منطقيّ بالمرة، فقلتُ معترضة:

-كيف؟ ألا ترين أن كلامكِ مبالغ فيه قليلًا؟

ابتسمت ابتسامة العرّاف، وقالت:

-لا، كل ما عليكِ فعله هو.....

***

لم أقتنع قط بكلام دكتور (خديجة) برغم أنها تمثلت في قافلة العزيز التي جاءت تنتشلني من غيابتِ الجب؛ إلا أن كلامها أيضًا لم يكن مدروسًا بشكل كافٍ، سأزعم على الطلاق مهما كلفني الأمر.

حرصتُ حرصًا تامًا على أن أبدو طبيعية ومتماسكة أمام (سيد) والأبناء، ومرتْ بضع أيام بسلام وأنا أنتظر الفرصة المناسبة لأخبره برغبتي الصريحة في الطلاق، وكل ذلك و(سيد) ما زال مصرًا على عقابي ولم يعطني هاتفي إلى

الآن، فتعطلت تجارتي.

وفي مساء يوم الجمعة لاحظتُ شرود (علي) ولا يلهو أو يذاكر كعادته، دنوتُ منه وأنا أسأله عن السبب، فلم يستجب لي في بادئ الأمر، وبعد إلحاح مني قال:

-أمس يا أمي وحينما كنتُ في المدرسة، لاحظتُ حزن صديقي (تامر) وعدم لعبه معنا أو محادثتي كما اعتدنا أن نفعل دائمًا، وحينما سألته قال لي أن

والداه انفصلا بعد مشاجرة كبيرة كادت توصل بهما للقضاء! وفي منتصف حديثه ظل يبكي كما يبكي أخي الصغير، وقال أنه لا يريد أن يحيا بعيدًا عن أمه، أو بعيدًا عن أبيه، حزنتُ لأجله كثيرًا وتمنيتُ من الله أن يسعد قلبه وألا يحدث ذلك بينكِ وبين أبي.

وكأنما كلمات (علي) كانت رصاصة اخترقت صدري، كان كلامًا جارحًا لي للغاية، وجعلني أشعر أنني أنانية حينما لا أضع في الاعتبار هؤلاء الأبناء الذين هم ضحايا زواج فاشل، كلامه جعلني أعيد التفكير في أمر طلاقي من (سيد).

كان عليّ الاختيار، إما أن أصر على قراري وأطلب الطلاق، وبعدها أحقق ذاتي في عملي، وإما أن أستمر في هذا الزواج وأحقق ذاتي في عملي أيضًا، النتيجة واحدة في كلتا الحالتين، لكني أن فعلتُ الأولى فسأدمر نفسية (عليّ) وإخوانه، وإن فعلتُ الثانية سأحافظ عليهم، أظن أن الحل الأمثل هو البدئ في تنفيذ خطة دكتور (خديجة) ولنرى ماذا سيحدث.

بعدما رأيتُ ما حدث من (سيد) شعرتُ أن جزءًا كبيرًا من قلبي قد تحطم، ولم أعد خائفة من أي خسائر، فبعض الصدمات والخيبات تصنع منا أشخاصًا لا يهزمون أبدًا، وكأن كل خيبة تدربنا على عدم الاستسلام!

***

بعد حديث طال مع (علي) ومحاولتي في إيصال فكرة أن أحيانًا الطلاق يكون هو الحل الوحيد المرضي لكلا الطرفين، وفي النهاية أوصيته أن يظل بجانب صديقه ولا يتركه يجلس وحيدًا.

كان الوقت ما زال مبكرًا، و(سيد) كالعادة يجلس ممسكًا بهاتفه...قد تلاشى

ذلك التغير الذي كان يزعم أنه سيقوم به، كنتُ أكبر حمقاء حينما ظننتُ أنه سيستطيع ولو تغيير جزءًا من شخصيته.

دخلتُ غرفتي أنا و(سيد)، فبالطبع ترك الهاتف فورًا من يده، بينما ابتسمتُ بتهكم ولم أعقب.

ظللتُ أبحث بعيني عن هاتفي إلى أن وجدته على "الكومود" فأخذته دون أن أعبأ بنظرات (سيد) المتعجبة، وأخذت أجيب بلهفة على طلبات التفصيل، فوجدته يقول:

-ما الذي تفعلينه يا (نعمة) أجننتِ؟! كيف تأخذين الهاتف دون إذني؟

أغلقتُ الهاتف، وابتسمتُ حينما وصلتُ لمبتغايا، فقلت:

-وهل استأذنتني قبل أن تتزوج عليّ؟

تملكتني السعادة حينما رأيتُ وجهه يتحول من الوجه القاسي الذي كان يثير الرعب داخلي إلى وجه طفل لم يستذكر دروسه وكشفته أمه!

حاول جاهدًا إخفاء ذلك الخوف، فقال:

-ما هذا الهراء؟!

-أرني هاتفك وسأريك الهراء بعينه.

وجد أنه لا داعي للهرب، فقال:

-بما أنكِ عرفتِ، فلنتحدث بصراحة.

-نعم، أنا أحب الصراحة جدًا.

صمتُ، ثم أكملت:

-الصراحة التي لا تعرف عنها أي شيء يا (سيد).

لم يعقب على كلماتي اللاذعة، وقال:

-هذا حقي الشرعي، لم أخطئ، ولم أقصر معكِ في شيء.

-بل قصرت يا (سيد)...قصرت وأنت تعرف حق المعرفة أنك كاذب، اصغ لي...لا أريد أي مبررات، أنا أعرف سببك في الزواج عليّ، لقد كنت تراني تلك الزوجة المسكينة التي ترضى بأي شيء، ولا تتمنى سوى العيش تحت سقف واحد في بيت يحميها من حماقة الناس، فلعبت على ذلك الوتر الحساس، لعبت عليه ولم تضعني بعين الاعتبار مطلقًا.

أثق أن وعدك لي بأن تتغير لم يكن سوى لتريح بالك من تلك المرأة الثرثارة التي لا تهدأ وتطلب أشياء من دروب الخيال، وكالبلهاء صدقتك وصدقت أنك ستتغير، ولكن ها نحن ذا نرى أنك لم تتغير قيد أنملة.

وبعد كل هذا...سأأخذ كامل حقوقي منك، ولن ننفصل، سنبقى هنا معًا من أجل تربية هؤلاء الأبناء، ولا يحق لك التدخل في شئون عملي مطلقًا.

أقسم برب السماوات...إن شعرتُ أن أحد الأبناء قد بدأ يشك في أي شيء، أو لاحظتُ تقصيرك معهم سترى مني وجهًا لم تكن تتوقع أن تجدني عليه يومًا ما، الخيط الوحيد الذي ما زال يربطني بك هم، ولا يوجد عندي أي استعداد لقطعه، أفهمت؟!

في المرة السابقة حينما تحدثنا بهذه الصراحة كنتُ أنا التي تتمنى ألا تخسر (سيد) لكن هذه المرة...قد فزتُ، فزتُ بنفسي وبكرامتي.

لم أرَ تأثيرًا على (سيد) بكلامي، بل على ما يبدو أن ذلك الحل راق له كثيرًا، سيتحرر مني للأبد وينشغل بزوجته الثانية.

قال في هدوء:

-اتفقنا.

فرددتُ في هدوء مماثل:

-من تكون زوجتك الثانية؟

قال بنبرة مرتبكة قليلًا:

-شيماء...شيماء أبو زيد.

مستحيل! (شيماء)؟! هذه كانت زميلة (سيد) في المكتب، مطلقة، كانت تسكن في نفس شارعنا حينما كانت متزوجة، لكنها لم ترزق بأطفال، كانت دائمًا تتردد على بيتي، ونجلس نتحدث سويًا، لم أتوقع أن تأتِ الضربة القاضية منها هي!

حاولتُ جاهدة ألا أظهر تأثرًا، فقلتُ:

-ومتى تزوجتما؟

-منذ سنة!

سنة كاملة لم أشعر فيها بأي شيء ليس على ما يرام، ولم أشك في إخلاص (سيد)، كنتُ ساذجة...ساذجة جدًا.

وبمجرد خروجي من الغرفة حتى انهرتُ باكية مجددًا!

يبدو أنني سأحتاج وقتًا طويلًا لأشفى من تلك الخيبة!

***

مرت سنة!...

سنة كانت صعبة بكل المقاييس لكنها مرّت، فيها ازدهرت تجارتي لمدى لم أتوقعه، كنتُ حزينة بشدة من (سيد) فكنتُ أخرج كل طاقتي في العمل، ومؤخرًا بدأت (يسرا) العمل معي في مجال التسويق لتشغل نفسها.

توطدت علاقتي بدكتور (خديجة) حتى أصبحت أمي بل أكثر!

أبنائي بخير حال وهذا كل ما كنتُ أتمناه، (سيد) ما زال كما هو، ومنذ شهران حملت منه (شيماء)، في بادئ الأمر شعرتُ بالضيق، ولكن بعد ذلك اعتدتُ الأمر كما اعتدتُ أشياء كثيرة من قبل.

أحوالي تحسنت لدرجة جعلتني ممتنة لكل المِحَن التي جعلت مني (نعمة) صاحبة أكبر متجر لتفصيل وبيع الملابس في القاهرة.

تلك الصعاب التي جعلت مني سيدة لا تهاب الفشل، لا تهاب كلمات الناس الجارحة، بل تعلمت جيدًا كيفية إخراس كل من نسب لي العيب أو النقص بغير حق.

ممتنة لـ(سيد) الذي ساعدني كثيرًا في فك قيودي قيدًا بعد قيد، حتى أصبتُ متحررة من قيودي متمكسة بأبنائي وبحلمي في أن أسس ماركة تحمل اسمي وجميع إنجازاتي في مجال التفصيل.

الآن...وبشكل فعليّ...قد تحررتُ من قيودي!

تمت بحمد الله

٢٠٢٠\٢\١٧